"عين النّقد: سيرة فكريّة" للدكتور صلاح فضل

عرض: محمد درويش عواد

تشكّل السّيرة الفكريّة (عين النّقد) للدكتور صلاح فضل إضافةً نوعيّة لفنّ السّيرة؛ وهي حريّة بذلك لأنّها لواحد من أعمدة النّقد العربيّ في وطننا العربيّ، والذي أصدر خلال مسيرته الفكريّة والإبداعيّة الطّويلة خمسة وثلاثين كتاباً في نظريّة الأدب والنّقد والأدب المقارن، بالإضافة إلى ترجماته العديدة لعيون الأدب والنّقد العالميّ.

يصحبنا الدّكتور صلاح في هذه السّيرة الممتعة إلى رحاب العلم والفكر والإبداع، إذ وقف أمام تحدّيات كبيرة، استطاع صاحبها تجاوزها بعرقه وكدّه وعزيمته وإصراره على متابعة مشواره وتأسيس نظريّته النّقديّة، التي باتت مدرسة رائدة يتعلّم فيها كلّ باحث عن العلم والجمال.

لجأ صلاح فضل منذ العنوان إلى عنصر التّشويق، فاختار عنوان (عين النّقد) التي شكّلت انزياحاً في اللغة عن المعتاد، فعندما "تراءى لي أن أطلق على بعض كتاباتي اسم (عين النّقد) تداعت إلى ذاكرتي صيغ عديدة شهيرة في الثّقافة العربيّة، منذ معجم الخليل بن أحمد (العين) الذي افتتح ذاكرة اللغة وأنساقها إلى هذا البيت الشّهير الذي يحمل موقف الناس مما يحبّونه أو يكرهونه:

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة ولكنّ عين السّخط تبدي المساويا

مروراً بتلك العين التي افتقدها الشّاعر؛ فقدّم عليها الأذن أداة للعشق، إلى عيون الفلاسفة والمتصوّفة وأهل المعرفة. لكنّ عين النّقد الثّاقبة تظلّ مسؤوليتها تأمّل الحسن واستبصار الجمال والنّفاذ إلى روح الإبداع، وهي لا تستطيع أن تقوم بذلك ما لم تمتلك خبرة وجوديّة وجماليّة تحيلها إلى بصيرة شاهدة". (١)

يؤكّد النّص السابق بكلّ جلاء على أمرين هامّين ، هما :

أولاً: مسؤوليّة عين النّقد هي تأمّل الحسن واستبصار الجمال والنّفاذ إلى روح الإبداع.

ثانياً: وجود خبرة وجوديّة وجماليّة تجعل تلك العين بصيرة شاهدة.

وحتى تقوم العين النّاقدة بتلك المسؤوليّة الشّاقة، يتطلّب من صاحبها قراءات معمّقة في حقول العلم والمعرفة وتجربة طويلة ودربة منذ الصّغر، وعين صلاح فضل قادرة بكلّ تأكيد على حمل أعباء هذه المسؤوليّة بعد رحلته الطّويلة في رحاب العلم والفكر والأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في سنّ الثّامنة، وكان والده الذي اختطفه الموت في زهرة شبابه "شاعراً خلّف لي ديواناً مفعماً بالقصائد العاطفيّة والاجتماعيّة، انتشيتُ بحفظه منذ الصّغر، ... وجدّي الشيخ الأزهريّ الذي جعلني قرّة عينه وعوّض بكره الفقيد كان يكتب رسائل بأسلوب الرّافعي في أوراق الورد ووحي القلم ، .. فتربّيتُ على تراث الشّعر والأدب والبلاغة في عيون الكتب والمجلات، وكان هذا كفيلاً بأنْ يشكّل مزاجي، ويؤصّل وعيي بالحياة... كان عمّه الشّاب ..لا يحلو له أن يذاكر مواده القانونيّة على مدار سنوات دراسته في الحقوق إلّا مضطجعاً على أريكته المحبّبة، مستمعاً إلى فتانا وهو يقرأ له مجلّدات المواد القانونيّة في المدني والجنائي والاقتصاد والدستوريّ والشريعة، وبقيت تلك المواد، التي فتحت له آفاقاً لم يكن يحلم بارتيادها في معرفة مسار تشكيل المجتمعات وتنظيم قوانينها وهندسة أوضاعها الإنسانيّة والمدنيّة. كان ذلك بمثابة إعادة تشكيل حقيقيّ لعقليّة هذا الصّبيّ اليافع، وتزويده بأهمّ ما ينبغي لدارس الأدب وناقده، ... كان ذلك أوّل (غسيل مخ) أو بداية (الشّحن المعرفيّ) الضروريّ؛ لتشكيل عين النّقد وتجميع بؤرة الضّوء في شبكتها الصّافية" (٢) . كما قرأ بنهم محموم أعداد مجلّة الرّسالة في مكتبة جدّه، وتذوّق إيقاعات الزيّات في افتتاحاته، وعذوبة زكي مبارك في (ليلى المريضة بالعراق) وحيادة دريني خشبة في ترجماته للأوديسة، وشقاوة المازني ورصانة النّشاشيبي، وتعدّدت مغامراته في القراءة المستمرّة فكان يقرأ كلّ أسبوع كتاباً خلال الدّراسة، وكلّ يوم كتاباً آخر في الإجازة، كما قرأ كلّ محصّلة المكتبة الإخوانيّة ومدرسة سيّد قطب خصوصا، وتربّى على يدي كبار العلماء والأدباء منهم مثله الأعلى الدكتور غنيمي هلال مؤسّس الأدب المقارن في الجامعات العربيّة.

بعد مراحل دراسيّة هامّة في مصر على يدي كبار العلماء والأدباء، ذهب صلاح فضل إلى مدريد منتصف عقد السّتينات للحصول على الدكتوراة في النّقد الأدبي، وهناك شرب من رحيق الفنّ والتّراث والسّماحة الأندلسيّة الأصيلة، فرأى إشبيليّة المدينة اللعوب إلى جانب قرطبة النّاسكة المتبّلة بعلمائها وفقهائها ومسجدها الجامع، وأخيراً غرناطة التي صانت للمجد العربيّ قصوره وبساتينه، وهناك

عاصر نزار قبّاني عندما كان يعمل دبلوماسيّاً في السّفارة السّوريّة، هناك شرب كأس الثّقافة الإسبانيّة حدّ الثّمالة.

"لم تكتمل عين النّقد عند صلاح فضل إلّا بعد الاطلاع على كبرى المدارس النّقديّة التي مثّلتها البنيويّة بلا منازع، والتي حلّت في النّقد الأدبيّ محلّ حمّى الالتزام التي صاحبت النّزعات الاشتراكيّة والوجوديّة ، فكانت (أوّل نقرات البنيويّة التي دوّختني كانت مقالات النّاقد الفرنسي الألمعي (رولان بارت)، التي تسرّبت إلينا ترجمتها فوراً في مدريد، كانت تشير إلى تغيير جذريّ في إستراتيجيّة الخطاب النّقديّ ولغته ونبراته، فلم يكن يعلن موت المؤلّف وانتهاء عصر المنهج التّاريخي فحسب، بل أثبت ما هو أخطر من ذلك، وهو احتضار الإيديولوجيات المنتصرة، بحيث أصبح النّقّاد الذين يدافعون عنها مثل المهرّجين في السيرك لا يفتنون سوى الأطفال. كان يعمد إلى التمثيل المرهف لتركيب النصّ الأدبيّ؛ ليقبض على عصبه الحسّاس، ويشرح كيفيّة أدائه لوظائفه الجماليّة ... لكنّ التأهيل الحقيقيّ لتلقي دعوة البنيويّة تمثّل مبكّراً في اضطراري للعمل معيداً في قسم اللغويات بدار العلوم قبل البعثة، وتفحصي الدّقيق لأهمّ المصادر العربيّة والمترجمة خلال إعدادي لرسالة الماجستير التي لم أتمّها عن الجملة الشّعريّة. ساعدني هذا على فهم محاضرات أساتذة الأسلوبيّة في جامعة مدريد، والتدرّب على تشكيل تقنيات التّعبير الشّعريّ، فأصبحتُ قابلاً لاستيعاب نظريّة (دي سوسير) ومدرسة براغ، والتلهّف على قراءة أبحاث (جاكوبسون) في الشّعريّة الألسنيّة ... قبل أن أعثر على (لوسيان جولدمان) العظيم، وأبهر بنظريّته التّوليديّة، واقتضى الأمر عقداً كاملاً من البحث والكتابة والمحو؛ حتى استطعتُ فهم البنيويّة. استقرّ في وعيي منذ تلك الفترة أنّ النّقد ليس حرفة شرح الأعمال الأدبيّة، كما كنت أتوهّم، وليس مجرّد الأخذ من كلّ فنّ بطرف كما علّمونا، ولكنّه الأصعب بكثير من سلّم الشّعر". (٣)

لقد درّب صلاح فضل عينه وأذنه على استقبال ما هو جميل، فها هو يورد لنا نصّا جميلاً عن أسطورة عصر السّماع أم كلثوم، "فهي التي أيقظت فينا الحساسيّة المفرطة للحبّ والنّغم والشّعر، أرضعتنا صغارا كلمات شوقي الدافئة، ورومانسية رامي الحنون، ورباعيات الخيام الجسورة. ذوّبت في قلوبنا حلاوة ألحان زكريا أحمد ورياحين السنباطي، علّمتنا كيف نحبّ ونهوى ونتطوّح في موكب أهل الهوى، وكيف ينشد كلّ منّا (سهران لوحدي) بالرغم من أنّه بين رفاقه. درّبتنا على قراءة لغة العيون وهمس الشفاه قبل عصر الصورة". (٤)

مع اقتراب الثّمانينات بدأ فضل يتطلّع بلهفة بعد استقراره في آداب عين شمس إلى ممارسة مشروعه النّقدي الملتحم بالواقع الإبداعي، فشرع في قراءة الإنتاج الشّعري لبعض الشّباب حينئذٍ، وكتابة تعليقات نقديّة عليه، إلا أنه أصيب بالحزن لما جرى لمقالاته من تخريب عند النشر، وعندما حكى لصلاح عبد الصبور عن سبب إحباطه، بادره بالقول: "هيا تعالوا لإصدار مجلة نقديّة من الهيئة العامة للكتاب. لم أصدّق جديّة الأمر، فتحمس أكثر وطلب منّي دعوة الدكتور عز الدين اسماعيل صديق عمره في الجمعية الأدبية المصرية، وجابر عصفور الذي كان شديد الإعجاب له، للمشاركة في إصدار المجلّة" (٥) ، وهكذا خرجت مجلة فصول إلى النّور، والتي تعدّ منذ صدورها منارة لكلّ النّقاد العرب والباحثين عن الدّراسات الجادّة ، ولا غرابة في ذلك لأنّها مجلة محكّمة لا تقبل إلّا الدّراسات الجادّة العميقة المتخصّصة، وبهذا أصبحت أهم المنابر الفكريّة الرّصينة لحركة النّقد الطّليعي، وتحوّلت بفضل جديّة عز الدين اسماعيل ومثابرته إلى مدرسة فكريّة يمتدّ أثرها إلى أطراف الوطن العربيّ .

لقد حفلت هذه السّيرة الفكرية بأحاديث كثيرة عن البلاد التي زارها صلاح فضل، فعمل في بعضها وأقام ندوات ومحاضرات نقدية وفكريّة في بعضها الآخر، حيث تعلّم فيها الكثير من خلال اطلاعه على عاداتها وأفكارها ولقاءاته العديدة بأبرز مفكّريها ونقّادها، كما حفلت السّيرة بآراء نقديّة هامة مثل (مستقبل الشّعر بعد درويش) ، و(في الخامسة مساء) التي درس فيها بكائيّة لوركا أسطورة الشعر الإسباني والعالمي في القرن العشرين، والتي رثى بها مصرع صديقه الأثير مصارع الثيران (إغناثيو سانشيت ميخياس)، و(بحثاً عن الشّعريّة) والذي طبّق فيه منهجه النقدي على قصيدة شوقي الغزلية (خدعوها بقولهم حسناء)، وإيمانه الدائم "بإنسانية العلم وبكفاءتنا العالية في استيعاب منطلقاته والإضافة الخلاقة إلى منجزاته، وأعتقد أنّ السبيل إلى ذلك في طريق ذي ثلاث شعب: الأولى تعتمد على تمثّل تاريخ المعرفة في التراث الإنساني كلّه، والثانية تقوم على متابعة آخر نقطة راهنة بلغها في تطوره، والثالثة تتكئ على اختباره على نار الواقع الإبداعي المعاصر في كل ثقافة على حدة؛ لاستقطاره واستثماره" (٦) . كما حفلت السيرة بعرض شائق لبعض كتبه والتي من أبرزها (علم الأسلوب) و(ملحمة المغازي الموريسكية: دراسات في الأدب الشعبي المقارن).

بعد هذا الطّواف في رحاب هذه السيرة الفكريّة الشائقة، يمكننا القول إنّ هذه السّيرة بشقيها النّظريّ والعملي تعدّ بحقّ مرجعاً فكريّاً ونقديّاً هامّا لنقّادنا العرب؛ لأنّ صاحبها ذو عينٍ ناقدة بصيرةٍ أفنى جلّ حياته في خدمة الأدب والنّقد.

الحواشي

(١) صلاح فضل: عين النقد / سيرة فكرية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠١٣، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥ – ٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠-٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٥) المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٦) المرجع السابق، ص ٢١٢ – ٢١٣.